الملفُّ الثالث

سلم القوامة

من خلال تدبير محكم وخطط مدروسة ومرسومة بل ومنظَّمة يعبث الواقع ببعض المصطلحات الإسلامية ويتلاعب بها فيصوِّر الحقائق على أنها وهم أو خيال، وذلك من أجل الإطاحة بالمبادئ والأسس والتشريعات الإسلامية والإلقاء بها في نفق مظلم لا تستطيع من خلاله العودة إلى نهر الحياة، وللأسف يجد له أنصارًا وأعوانًا يقومون على خدمته وتلبية أوامره.

والقوامة من تلك المصطلحات التي ظلمت كثيرًا في عالمنا المعاصر، حيث ألصقت بها كل معان الظلم والقهر والاستعباد، ونزعت منها كل معاني السلميَّة من الرِّعاية والعناية والاهتمام والقيام بجميع مصالح الأسرة ودفع كل مظاهر السوء عنها. والقوامة في ضوء المنهج القرآني لم تكن أبدًا مصدر تسلُّط أو تجبُّر أو إذلال أو استعراض عضلات، أو أي مظهر من مظاهر القوة في ضوء هذه الدائرة، بل هي أمانة ومسئولية في أعناق الرجال إلى يوم الدِّين، فالمسألة ليست سلطة حاكمة تفرض إرادتها وسيطرتها على رعيتها كيفما شاءت بل هي يد حانية تمتد لتزيل كل أنواع الهموم والأحزان، وتبعث في كل جنبات البيت، بل وفي الحياة الأسريَّة كلها الأمن والأمان والهدوء والاستقرار.

قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: 34].

في الآية الكريمة تفصيل دقيق وواضح لمبدأ القوامة حتى لا تخرج عن إطارها الصحيح ومنهجها القويم فتعبث بها أيدي العابثين، حدَّده الله وقيَّده بشرطين، فقال: «﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: يقومون عليهن قيام الولاة على الرَّعية وعلَّل ذلك بأمرين:

أحدهما وهبي، والآخر كسبي، وقد ذكر الأول بقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي: بسبب تفضيله الرجال علىٰ النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوَّة في الأعمال والطَّاعات، ولذلك خُصُّوا بالقوَّة والأمانة والوِّلاية، وإقامة الشَّعائر والشِّهادة في مجامع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة، والتعصيب وزيادة السهم في الميراث، والاستبداد بالفراق والرجعة وعدد الأزواج وإليهم الانتساب، وهم أصحاب اللحىٰ والعمائم، ثم ذكر الثاني بقوله تعالىٰ: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ في نكاحهن كالمهر والنفقة»[1].

فالواقع إذًا وإن كانت به بعض الغيوم التي تحجب الرؤية عن أعين الناظرين إلا أن الحقيقة تنطق وتقرُّ بنفسها بأن القوامة شرف للرجال بهذا التعليل القرآني، وفي الوقت ذاته شرف في حق النِّساء؛ لأن الله ﷻ جعلهن أمانة في أعناق الرِّجال لا يكرمهن إلا كريم ولا يهينهن إلا لئيم.

فالرِّجال «قوَّامون عليهن بإلزامهنَّ بحقوق الله تعالىٰ، من المحافظة علىٰ فرائضه وكفهنَّ عن المفاسد، والرِّجال عليهم أن يلزموهنَّ بذلك، وقوامون عليهنَّ أيضًا بالإنفاق عليهنَّ بالكسوة والمسكن»[2].

وهذه هي الدَّرجة التي ذكرها ربُّنا ﷻ في آية أخرىٰ بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة: 228] «أي: رفعة ورياسة وزيادة حقٍّ عليها»[3].

وهذه الرفعة لم تكن من باب تفضيل جنس علىٰ آخر، بل هي طبيعة خِلقية أوجدتها حكمة الخالق القدير ﷻ، فـ «هذه الدَّرجة اقتضاها ما أودعه الله في صنف الرَّجال من زيادة القوَّة العضليَّة والبدنيَّة، فإن الذُّكورة في الحيوان تمام في الخِلقة،

(1) تفسير السراج المنير. شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني 1/ 241 – دار الكتب العلمية – بيروت. وينظر: معاني القرآن وإعرابه 2/ 46، 47، والكشاف 1/ 505، 506، والجامع لأحكام القرآن 3/ 153، وتفسير القرآن العظيم 1/ 641، 642.

(2) تيسير الكريم الرحمن ص190.

(3) السابق ص101.

ولذلك نجد صنف الذَّكر في كل أنواع الحيوان أذكىٰ من الأنثىٰ، وأقوىٰ جسمًا وعزمًا،... فلذلك كانت الأحكام التشريعيَّة الإسلاميَّة جارية علىٰ وفق النظم التكوينيَّة؛ لأن واضع الأمرين واحد»[1].

ولكن -كما قلت لكم- المنهج القرآني شيء والواقع بعاداته وتقاليده شيء آخر، «فالرَّجل ربُّ البيت والقيم علىٰ الأسرة، بيد أننا في أغلب الأحيان نظنُّ الرياسة لونًا من الفرعونيَّة أو الانفراد بالسلطة فلا تفاهم ولا شورىٰ! الرئيس لا يعترف برأي آخر ولا يكترث بإرادة أخرىٰ! وهذا الفهم لمعنىٰ الرِّياسة أسقط الشرق سياسيًا واجتماعيًا، وأخذ بالدول والبيوت علىٰ حد سواء. إن الرِّياسة الصحيحة عبء زائد، ومسئولية أثقل، وهي في البيت الإسلاميِّ تتمة لجملة من الحقوق والواجبات المتبادلة كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: 228]. وأساس التعامل الخُلق الزَّاكي، والحبُّ السيَّال، والإيثار الذي يرجِّح الفضل علىٰ العدل، والترفُّع عن ملاحظة الصَّغائر»[2].

وعلىٰ ذلك إذا عاد مفهوم القوامة إلىٰ أصله الصحيح توارت أصوات الصِّياح والصُّراخ التي تنادي بهضم حقوق المرأة وأخذ الرجل كافَّة الصَّلاحيات العنترية التي تمكنه من إذلالها وجرح كبريائها وامتهان كرامتها، بل هو شرفٌ وعزٌّ وسِلْمٌ إذا ما حكمته التشريعات الإسلاميَّة وهيمنت عليه الحقوق والواجبات التي تحافظ عليه وترعاه.

«انظر إلىٰ هذه الحقيقة في أي مؤسسة أو إدارة تجد أن صاحب المال هو صاحب الأمر والرأي، وكل من يعمل عنده يعترفون بذلك فطرة وطبيعة وعادة ونظامًا. ولذلك يقوم الرجل علىٰ شئون أسرته لأنه مهيأ لذلك، ولأنه ينفق عليها من

(1) التحرير والتنوير 2/ 401. وينظر: تفسير القرآن العظيم 1/ 354.

(2) المرأة في الإسلام. محمد الغزالي ص8 - مكتبة أخبار اليوم الإسلامية.

ماله الذي يكدُّ ويتعبُ في تحصيله بطرق الكسب المشروع وهذه سُنَّة الله في خلقه، ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً، ولن تجد لسنَّة الله تحويلاً»[1].

فإذا كانت بعض البيوت المسلمة تتقمَّص فيها النِّساء دور الرِّجال فيقمن بالإنفاق علىٰ الأسرة، وبالتالي تكون هي صاحبة الشخصيَّة القويَّة، لها عليه حق السمع والطاعة فيظل لسان الرجل صامتًا أو قابعًا في فيه لا يتحرك إلا عند لوكه الطعام، وربما يكون ذلك بالأمر أيضًا تنتزع منه صفة القوامة؛ لأنه فقد شرط الإنفاق بنصِّ الآية الكريمة.

فالشخصية القويَّة نرحب بها دائمًا في بيوتنا المسلمة، ويا حبذا لو اشترك فيها الرَّجل والمرأة علىٰ حدٍّ سواء فيحدث التكامل بديلاً عن الاختلاف والتضاد؛ وذلك لأن «التعريف العلمي الصحيح للشخصية القويَّة هي: الشخصية التي تستمر في النُّمو والتَّطور، فصاحب العقلية المتحجرة ضعيف الشخصية، ومن لا يستفيد من وقته وصحته وإمكانياته ضعيف الشخصية، ومن لا يعدِّل من سلوكه ويقلع عن أخطائه يكون أيضًا ضعيف الشخصية. قوة الشخصية تعني أيضًا القدرة علىٰ الاختيار السليم، والتمييز بين الخير والشرِّ والصواب والخطأ، وإدراك الواقع والحاضر وتوقُّع المستقبل. فالنُّمو والتَّطور شرطان أساسيان لكي تكون شخصيتك قوية ومثمرة في الوقت نفسه»[2].

فإذا ما حكَّم الرَّجل عقله واهتدت المرأة لطريق الرَّشاد وآمنت بما قضىٰ به ربُّها ﷻ وقدَّر، أيقنا معًا أن الخير والسِّلْم كله في هذا المنهج وأن الحيد عنه هو المدخل لكل إثم والدفع إلىٰ كل ذنب.

---

(1) هو وهي (قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم) د. عودة خليل أبو عودة ص255 - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطاع الشئون الثقافية - إدارة الثقافة الإسلامية - دولة الكويت - الطبعة الثانية - الإصدار (18).

(2) زوايا أسرية ص11.

«**والخلاصة**: أن القوامة هنا ليس المقصود بها مطلق الرياسة التي قد تقوم علىٰ الظلم والقهر والغرور والعدوان علىٰ حقوق الغير، وإنما المقصود بها الرعاية والحفظ لحقوق النِّساء، والدفاع عنهن، وحمايتهن من كل إساءة تقع عليهن، وصيانتهن من كل ما يتنافي مع كرامتهن، وغير ذلك مما تقتضيه مصلحتهن، وتقتضيه المسئولية الضخمة التي حملها الله -تعالىٰ- للرِّجال»[1].

وعلىٰ ذلك يكون قد استقرَّ في الأذهان أن القوامة تكليف لا تشريف، فـ «الحياة الزَّوجية حياة اجتماعية، ولابد لكل اجتماع من رئيس؛ لأن المجتمعين لابد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الأمور ولا تقوم مصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يرجع إلىٰ رأيه في الخلاف، لئلا يعمل كل علىٰ ضدِّ الآخر فتفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النِّظام، والرَّجل أحق بالرِّياسة لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر علىٰ التنفيذ بقوته وماله، ومن ثم كان المطالب شرعًا بحماية المرأة والنفقة عليها، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف»[2].

فالرَّجل والمرأة في بيت واحد شخص واحد لا يتجزأ، بعض أعضائه أقوىٰ من بعض ولكنها جميعًا آداة للنهوض بصاحبها واستقرار حياته، و «ذلك أن المرأة من الرَّجل والرَّجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشَّخص الواحد، فالرَّجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن!... واعلموا أن الرِّجال الذين يحاولون بظلم النِّساء أن يكونوا سادة في بيوتهم إنما يلدون عبيدًا لغيرهم»[3].

---

(1) حديث القرآن عن الرجل والمرأة د. محمد سيد طنطاوي ص210 - سلسلة البحوث الإسلامية - الأزهر الشريف - السنة السابعة والثلاثون - الكتاب العاشر - الطبعة الثانية 1427هـ-2006م.

(2) الأعمال الكاملة 4/ 610، 611.

(3) السابق 5/ 201، 203.